تديّن ما بعد الدكتاتورية

(١-٢)

عبد الجبار الرفاعي

في الأدبيات المتداولة لدى الإسلاميين يجري خلط بين الإسلام بمعنى نص الكتاب، والإسلام بمعنى التراث المدون للمسلمين عبر التاريخ، والإسلام بمعنى التجربة التاريخية للاجتماع الإسلامي، وما اكتنفها من انتصارات وصراعات وهزائم، وما شاع في حياة المسلمين من تقاليد وممارسات متنوعة. فيغدو الدفاع عن الإسلام أحياناً دفاعاً عن بروتوكولات القصور السلطانية، أو دفاعاً عن الإكراهات المختلفة في الحياة الإسلامية. وتتسع دائرة المقدس فتشمل الماضي بأسره، من دون تمييز بين خيره وشره، وعدله وظلمه، وحسنه وقبحه، ويتحول الإعلام الذين عاشوا في تلك العصور، من المتكلمين، والفلاسفة، والعرفاء، والمتصوفة، والفقهاء، والمفسرين إلى كائنات متعالية على التاريخ، ويتعاطى الكثيرون من آثارهم وكأنها نصوص أبدية خالدة، لا تختص بزمان أو بيئة حضارية معينة.

ومن الواضح أن الرؤية الكونية وصورة الإله، ونمط صياغات المفاهيم، والأحكام، والمواقف السائدة، فيما كتبه المسلمون من مدونات ومؤلفات، تلتبس بطبيعة الظروف والأحوال والظواهر السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية، فولادة وطغيان استبداد الخلفاء والسلاطين، منذ العصر الأموي إلى آخر سلطان عثماني، رسخ صورة للإله طمست رحمته ورأفته وعفوه وجماله وجلاله، الذي يتجلى مشرقاً في النص القرآني، وجرى تهميش وإقصاء لآثار العلماء، الذين لا يتطابق موقفهم مع هذه الرؤية، لأنها كانت تفصح عن اجتهادات تسعى لمقاربة تلك الموضوعات من منظور مختلف، وتفضي إلى اكتشاف الأبعاد الإنسانية في الدين، والإعلان عن أن احتقار الآخر أو عدم احترامه، لا صلة له بالدين، لأن، "الدين هو الحب والحب هو الدين" حسب تعبير الإمام محمد بن علي الباقر (ع).

وعلى هذا ينبغي التمييز بين الإسلام الأمبراطوري، الإسلام الذي نشأ وترعرع في البلاطات والقصور السلطانية، والإسلام السلفي، الإسلام الذي يختزل الدين في طاحونة للقتل الشنيع، كما فعل في كربلاء والكاظمية في العاشر من محرم هذا العام، وبين الإسلام القرآني المبرأ من ذلك.

هجاء الحياة وتمجيد الموت

وهب الله الحياة للإنسان، فصارت مناط الاستخلاف والأمانة، وبالتالي المسؤولية، وارتكزت عليها وانبثقت منها كل مكاسب البشرية وإبداعاتها وتعبيراتها. وتحرص الأديان عادة على احترام الحياة، وربما تقديسها، وتتطلع الرسالات السماوية إلى تطهير الحياة من القلق، وبث الطمأنينة والسكينة في روع الإنسان، عبر ترسيخ النزعة الروحية والأخلاقية، وتكريس المضمون الرمزي للعالم، والكشف عن مظاهر الانسجام والاتساق بين الإنسان وما حوله، وتحريره من الاغتراب الكوني، ومن كل ما من شأنه أن يسلخه وينفيه من هذا الوجود.

غير إن الحياة تغدو لعنة، واية محاولة للتشبث بها، والسعي لعمارتها، والتنعم بطيباتها، تصبح منافية للفهم السلفي للدين، ذلك الفهم الذي يتمحور خطابه على هجاء الحياة، وتمجيد الموت، ولعن المباهج، وأسباب الفرح والغبطة والمسرة، بل مسخ الذوق الفني، وتجاهل الأبعاد الجمالية في الكون. إن التعامل مع الحياة بهذا المنطق، هو مصدر الشعور بالأحباط والفشل، وهو الذي يقود إلى العنف، والرغبة في تدمير الحياة، وتحطيم كل شيء ينتمي إليها. حيث تهيمن ثقافة الموت على وجدان الإنسان، وتنطفئ جذوة الحياة في نفسه، ويفتقد القدرة على المساهمة في البناء، ولا يتقن أية حرفة سوى تقديس الحزن، وصناعة الموت، فتندثر طاقاته، وتتعطل قابلياته، وتتبدد إمكاناته ومواهبه بأسرها.

وليس هناك درب يقودنا إلى الحياة، ويعيد قطاعات واسعة من الشباب إلى العالم الذي افتقدهم، سوى إشاعة فهم عقلاني جريء للدين، يخترق الأدبيات الجنائزية في تراثنا، التي تكثف حضورها في الخطاب السلفي اليوم، كما يخترق ما راكمته تجربة الاجتماع الإسلامي من إكراهات ومظالم وصراعات مختلفة، عملت على تبلور مفهومات وفتاوى مشبعة بتلوينات تلك التجربة.

لقد باتت الحاجة ملحة إلى دراسة وتحليل منابع اللا تسامح، وبواعث العنف والكراهية في مجتمعاتنا، والاعتراف بأن الكثير منها يكمن في الفهم الخطأ للدين، والجهود الحثيثة للأصولية السلفية في تعميم هذا الفهم وتعزيزه.

ومن الضروري عدم التوقف عند دراسة مضمون الخطاب، وإنما يجب تحليل خطاب الجماعات الأصولية، ودراسة الآليات الخطابية، التي تنتج العنف، وتمتدح الكراهية، ذلك أن اللغة ليست أداة محايدة في بيان المعاني، بل اللغة في حراكها التواصلي والاجتماعي، كما تجسدها النصوص هي فضاء من الفضاءات الاجتماعية يخضع لحركية خاصة، ينبغي أن تحلل من داخلها. وعلى حد تعبير نيتشة، فإن كل كلمة هي عبارة عن حكم مسبق.

إن مراجعة عاجلة لنموذج من الأدبيات السلفية، سترينا بوضوح كيف أن هذه الأدبيات بقدر ما تتحدث عن مناهضة الآخر، وانحصار أسلوب التعاطي معه بالقتل والإبادة، فإنها تتكتم على مساحة شاسعة في النص، تتحدث عن الرأفة والرفق والعفو والعدالة والرحمة، حتى يخيل لمن يستمع إلى منابر هذه الجماعات، أو يقرأ بياناتها، إنها تتحدث عن دين خاص تنحته، وتعيد تشكيله في إطار وعيها، وخلفياتها ومسبقاتها وقبلياتها ومفروضاتها الذهنية، ولا علاقة له بالنص المؤسس. إنه دين مشبع بالإكراهات، ينفي الروح التطهيرية للدين، ويمسخ ما يختزنه من معان سامية، ويفرغه من محتواه العقلاني، ويحيله إلى مجموعة من المقولات والشعارات المغلقة تستنزف الطاقة الحيوية الإبداعية لرسالة الدين، وتفقره، وتمسخه، وتستبدله بمفهومات وأفكار مقطوعة الجذور عن روح الدين وجوهره، وتصيره عبئاً ينوء الناس بحمله، ويعطل دينامية التطور في الاجتماع البشري، ويستدعي القيم الرديئة للبداوة، فيبعثها من جديد، ويتبناها، ويدافع عنها، ويسقط عليها قناعاً إسلامياً، بوصفها تمثل الهوية والأصالة، فيما هي في الحقيقة ليست إلا تمثلات وتعبيرات وتقاليد، لبيئة محلية صحراوية قاسية غليظة، رفضها القرآن، ونعتها بتسميات قدحية، وجعلها النقيض لروح الدين ومقاصده الأخلاقية، وأهدافه الإنسانية.

لا إكراه في الدين

مما لا ريب فيه أن حق الحياة من الحقوق المصونة المحترمة لجميع البشر، بقطع النظر عن أجناسهم وثقافاتهم ومعتقداتهم، وإن عدم الإيمان أو الكفر وحده لا يصلح أن يكون موضوعاً للحكم بالاعتداء على شخص أو قتله، وأن الأصل هو براءة الكل من العقوبة الدنيوية، وإثبات أية عقوبة بحاجة إلى دليل، ذلك أن المعتقد أمر جوانحي باطني، وليس أمراً جوارحياً خارجياً، وان تحققه وحصوله ليس باختيار الإنسان، بمعنى أن العالم الجواني الداخلي لا يمكن فرضه بالقسر، باعتباره عالم الحرية.

قصائد لم تنشر للراحل حسين الحسيني

وصلت إلى المدى الثقافي مجموعة من قصائد الشاعر الراحل حسين الحسيني ننشرها هنا استذكاراً ومحبة بالشاعر الراحل

المدى الثقافي

حسين الحسيني

غناء مكتوم

أفق مفتوح

في أفقي المفتوح
لا أرى غير (حسين) مذبوح
لا أرى غير أرض وقحه
ترى الذبيح
وتغفل عمن ذبحه

كل شيء بدد :

كل ما كان - قبل اليوم - في يدي
سدى،
وكل ما كان - قبل اليوم - قريباً
بعدا.
أي عاصفة هوجاء
دكت قلاعي
أحالت كل أحلامي بددا؟

نشيج :

لست غافلاً عما أنا فيه
....
....
لكني أداريه
من لي؟
أصرخ: من لي؟
فتئن جذور
كانت أشجار حديقتي:
ألا تسمع نشيجي؟
...
من يقول لي
لماذا..؟
يحيط بي،
كل هذا...

٢٠٠٢/١/٢٥

قصة قصيرة

حاضن الأسئلة

طامي هراطة عباس

قلب الأرض المعتمة لم ينبض بعد، مكوناتها المنتصبة أو الهامدة على سطوحها السود والتي تلصف بشدة كانت مجرد عواكس للضوء المنهمر على حافاتها الحادة أو المسننة، وربما كان ذلك وحده المؤشر الوحيد على وجودها، فلم يكن ذلك الارتداد الراعش الموحي بحياة زائفة غير رجع للضوء القادم من الغيوم المجدبة التي تبرق دون توقف على سطوحها البلورية أو الصخرية الملساء.

ثمة ما يوحي بأن الأرض الداكنة كانت متحررة من احتواء العروق الضخمة والجذور المتينة المفترضة لتلك الكتل المنتصبة والتي تبدو مثل غرس عشوائي إذ بدت بعض الحفر المتاخمة لتلك الأشياء المتعامدة مثل تجويف صخري مجدب خال من أية جذور. لم تتبلور بعد قاعدة تقاسم الأشياء فمازالت الظلمة تزحف على المكان من كل الاتجاهات فيما يجهد النور هو الأخر لاختراق تلك السحب الكثيفة مرسلاً خيوطاً واهنة لا تكفي لإضاءة العالم الجامد في الأسفل فكان المشهد برمته معلقاً وسط هذا التنازع. الصمت العميق الشامل هو الآخر يهيمن على الامتداد الغائر لذلك التكوين ولم يكن الشك سوى بذرة صغيرة كامنة في رحم هذا السكون الثقيل، كانت خيالاته الرخوة تنزلق أحيانا من باطن هذه الأشياء الميتة لتجوس حافات المكان بحثاً عن حيوات تستقر فيها، فكان يتشمم التربة المحيطة بالمكان كما لو إنه قطع وعداً بأن يستنبت البتلات اللامرئية التي تعبث بأحشائه كي تستوطن أية حياة تصادفها....

الفضاء القريب المزدحم بالأبخرة والغازات العقيمة ينسج من غيومه البيض أعشاشاً تؤوي الخيوط البيض المنفلتة من السطوح المالحة والعذبة، يغريها بالارتفاع والتسامي الى مديات أبعد الى كمائن البرد المتسرب من مجاهل الازلية الغامضة، هناك وسط الصمت المتعالي يجرى التحول، إذ تستبدل الخيوط البيض بشرتها الرقيقة الترفة وتتحول الى بلورات صغيرة مائعة، كروية مرة وبيضوية مرة أخرى لكن هذا الارتفاع الباعث على الدوار والغثيان المقزز يفزعها فيعصف بها الحنين فتندفع جزعة نحو الأسفل ملتحمة ببعضها أحياناً فتغدو قطرات كبيرة ناضجة عذبة أو ذرات هائمة بلا خيار، لكنها تفلح مع ذلك بالتماسك لتشكل خيوطاً وحبالاً من ماء هابط من الأعلى نحو الأسفل المريب المغايرأحياناً لموطنها الذي حلقت منه خيوطاً واهنة وعادت بهيأة أخرى لكنها مازالت تقبض على كيانها المتشكل من ذرتين مختلفتين لم ينفصلا رغم إرتطامهما بتلك السطوح القاسية.

الأرض الهشة ابتلت فانتفض الغبارقليلا ثم عاود الهبوط مثقلا بالبلل ليستجلي حقيقة هذا الوافد المحيرالذي أشاع في المكان رائحة لم يألفها من قبل، تلك الرائحة التي أغرته على معاودة اكتشاف هذا الآتي من السماء والالتحام به : كانت هاجس الشك الكامن في تلك الأنحاء، فأندفع عارياً مواجهاً الانهمار الرتيب مصغياً بتوجس لإيقاعات لم يألفها من قبل لكنها رغم غرابتها بدت محببة وحميمية، فارتفع قليلا بجسده الأثيري وراح يتفحص المكان باحثاً عن وجود جديد أو نظير آخر قد يوقظه هذا الطارىء الجديد.

أتخمت الأرض الهشة بماء المطر وتراجعت الغيوم لحين مفسحة الطريق لهبوط النور كي يضيء الشقوق المعتمة ويبعث الدفء في الأماكن الرطبة والمتجلدة. كانت بعض البرك الصغيرة قد جفت وأحتفظ البعض منها بقليل من الماء، لكن الأماكن الظليلة الدافئة كانت تخبىء الصلصال الوليد بلونه البني المائل للحمرة، فكان هذا الحنو الفخم مظلته ودرعه الواقي من الجفاف والتعفن وربما كانت الصدفة وحدها هي التي جعلت حاجته للماء والنور المنهمر من كتلة السماء الملتهبة مقننة فلم يكن متخماً بكل الأحوال فقد كان طرياً وقابلا للتشكل وظل يحتفظ بخلاف الموجودات برائحته الخاصة إذ كانت شيئاً جديداً فهي لم تكن تشبه رائحة الصخر المنصهر أو التراب المختلط بالحصى وجزيئات الرمل، هذه الميزة صارت تؤنس الهواء البارد المستتر بالظل فكان يلامس سطحه برفق وحين تكون الفرصة مواتية يطبق الصلصال على بعض منه فتغوص تلك النفحة التي لا تملك رائحة ولا لوناً في أعماقه الباردة لتخرج بعد حين بهيأة فقاعة صغيرة حاملة معها رائحة مسكرة فتندفع نفحات أخر معاودة الهبوط من جديد حتى تضوع في المكان أنفاس الصلصال المميزة....

لم يكن هناك عد تنازلي لليقظة، كان السبات طويلا ومكلفاً استبدلت خلاله كل الأشياء قشرتها وجلودها القديمة بشفرات الرياح والعواصف ومرارة القيظ اللاهب واستسلمت أخيراً لمنطق الصدفة ومساراتها المكتنفة بالمفاجآت وقيود الانتظار. في الأيام الصامتة يتقصى الشك المعمرالوجود المتناثر حوله وكانت المياه التي يتوسد الضباب سطوحها الساكنة تبعث فيه إثارة مستديمة فاعتاد أن يندس بين الضباب وسطح الماء المتجلد مفتشاً عن أية رعشة أو رفيف يمكن أن يؤنسه أو يحتويه إذ كان مكتنزا ببذور الأسئلة والريبة المضنية، لكن التجوال في ذلك المتسع كان يعيده دون أن يفهم الى نقطة البداية وكان ذلك الفشل المتكرر يدفعه الى تقصي أماكن أخرى منساقاً خلف حلمه باختزال معاناته من تلك الوحدة الازلية التي تعبث به دون توقف، فحدد أماكن أخرى لبحثه إذ كانت رغباته هي الأخرى عرضة للتغير الذي تمليه العصور والسنوات التي كرست نفسها لخدمة الموات والصمت....

الخيبات المتصلة جعلته ينأى عن وجه الماء، فمضى يتحرى القفر منجذباً نحو ألاماكن التي عافها لدهور لا يمكن عدها إذ كان توالي الأزمنة وخواؤها وضيقه بوحدته القاسية يراكم في داخله أسئلة جديدة ساخطة ومشبعة بالمرارة والقرف من هذا العالم الجامد المحير، فلم يعد يذكر عدد خيباته والأوقات التي تلاشت فيها آماله حين تهيمن الظلمة على المكان لزمن يفوق معارفه وخبراته البدائية التي نحتت إحساسها بالزمن على الصخور والكهوف أو طمرتها الزلازل وتصدعات التربة في الأعماق السحيقة متأملة أن تفكك شفراتها في عصر ما....

الأماكن الدفيئة التي تضوع منها رائحة الصلصال استرعت إنتباهه، حط خفيفا على حافتها تفحصها دون أمل، فكر إنها خيبة أخرى شأن الأخريات، كان محبطاً ومرهقاً فانزوى على الجرف الرطب متأملا ضوء النجوم الفتية اللامعة وذيول النيازك الملتهبة الباهرة، كانت فكرة الهجرة تراوده كلما تضخم إحساسه بالتعاسة، لكن حدساً قوياً كان يوحي له بأن تلك النجوم الراشحة بالألوان المثيرة كانت أكثر جدبا من هذا المكان، ومع ذلك فقد كانت أماله التي روضتها الدهور بالخواء المجرد من أية رفة أو همسة واعدة تحتضن في أعماقها أحلاماً ضامرة لكنها حية....

ووسط هذه الانشغالات كان ثمة كائن صغير بلا وزن أو حجم يذكر يتخلق في عمق الصلصال الدافئ، ورغم حركته الضعيفة، إلا إنه استطاع أن يلتقط نبض الحياة في داخله، تجمد لزمن، خضه فرح باعث على القشعريرة، هبط إليه مخترقاً دفْ بركة الطين تأمل الكائن الرخو كان ضعيفاً وهائما دون وجهة محددة لكنه لاحظ إنه اصغر بكثير من أن يحتوي بذور الأسئلة التي تملأ دواخله المعبأة بألغاز الوجود العصية، ومع ذلك فقد كان سعيدا وهو يراه يكبر قليلا وينشطر الى كائن أصغر، وراح توالي الانشطار يبهره، فمضى يسبح وسط ملايين الحيوات الصغيرة، كانت ترتعش وتنبض بلا قلوب، وتتهرب من ملامسته لها ومع ذلك فقد كان منتشياً بهذا العالم الخام المتشكل حوله....

منحه هذا الحدث الفرصة في أن يسترخي قليلا قرب المكان وأن يشحذ آماله الضامرة ويوقظها وأن يجد من يحتضن هذه الإلغاز التي يكاد التقادم يفسدها، كان يحس بثقل جسده وربما هو الآن أكثر حاجة لوريث جديد أو شريك قادر على التواصل معه إذ كان يدرك على نحو ما إن جسده الأثيري غير قادر على الطواف والعيش في هذا المكان الى الأبد.

لم يكن يعرف كم استمر هذا الاسترخاء لكنه كان مهتما بتلك الأشياء التي تخرج من بركة الطين، يتأمل زحفها البطيء أو قفزاتها الصغيرة المنهكة واحتضارها على الحافات الندية، ويصبح عرضة للإحباط عندما تفشل هذه الكائنات بحمل أسئلته وتنهار حالما يودعها في عقولها الصغيرة، ولم يعرف على وجه التحديد من أين تأتي تلك الصور والايحاءات الغامضة التي جعلته يلبث منتظراً لدهور موقناً بأن حامل الأسئلة سيكون جميلا وفارعاً ومنتصباً على ساقين قويتين....

غفا على حافة الصلصال حالماً بأن يوكل المهمة للكائن الجميل القادم وربما يهاجر لإيقاظ أكوان أخرى.